بعض الملامح الثقافية للشخصية الدمياطية

إعداد

وسام إبراهيم السرى

إشراف

أ.د/علياء شكرى **أ.د/سعاد عثمان**

مقدمة

تستطيع كل ثقافة من الثقافات كما تقول مارجريت ميد أن تدفع بمحتوياتها إلى أفرادها وأن تضمن وصولها إليهم وتعرضهم لها ، فمن الثقافات ما يستعمل في منهجه الغالب-على حد تعبيرها-طريقة الحزم والصرامة، ومنها ما يستعمل الطريقة السياحية الممتعة، وهذه الطرائق في حد ذاتها من الأدوات التى تتصل بتكوين اتجاهات الفرد الاجتماعية وتشكيل نظرته إلى الحياة وكيفية معالجة مواقفها المختلفة(أحمد زايد، ٢٠٠٥: ١٦٣-١٨٢).

ويمثل البحث المقدم جزء من الفصل السابع من رسالة الدكتوراه للباحثة بعنوان "الأبعاد الاجتماعية والثقافية للشخصية الدمياطية/دراسة أنثروبولوجية لمدينة دمياط"،حيث تدور مشكلة الدراسة فى هذه الرسالة حول محاولة التعرف على سمات الشخصية الدمياطية وأبعادها الثقافية والاجتماعية والتى تتسم بمميزات لها خصوصية، وتلك السمات هى ما تحدد الهوية المميزة للمجتمع الدمياطى، وقد حاولت الدراسة التعمق فى معرفة الأبعاد التى ساهمت فى تكوين تلك الشخصية ،وذلك بهدف التعرف على سمات الشخصية الدمياطية ثقافياً واجتماعياً، وعوامل تشكيلها تاريخياً وثقافياً واجتماعياً واقتصاديا، إضافة إلى رصد عوامل الثبات والتغير فيها.

وتعد هذه الدراسة دراسة انثروبولوجية، وبالتالى فقد استعانت الباحثة بالمنهج الأنثروبولوجى وأدواته، إلى جانب مناهج أخرى منهج دراسة المجتمع المحلى، ومنهج تحليل الدور، وقد اعتمدت الباحثة على بعض النظريات التى اهتمت بالثقافة والشخصية كإطار نظرى، حيث أن نظرية الثقافة والشخصية واحدة من أهم وأقدم المداخل النظرية التى تناولت الشخصية وعلاقتها بالأبعاد الاجتماعية والثقافية ، كما اهتمت الباحثة بالاستفادة من توجهات نظرية أخرى كنظرية التفاعلية الرمزية، ونظرية الدور ، إضافة إلى توجهات نظرية أحدث كالنظرية الثقافية ونظرية التشكيل ؛ حيث أن كلاً منها تحمل توجهات نظرية حديثة عن الشخصية والثقافة والمجتمع، مع الاستفادة من آراء نظرية لعلماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا المصريين المهتمين بدراسة الشخصية، والاستفادة من تلك المداخل النظرية لدراسة البعد الثقافي للشخصية الدمياطية.

ويتناول الفصل السابع الذى يعد هذا البحث جزء منه،وهو بعنوان "البعد الثقافى للشخصية الدمياطية" الخصال العامة، والقيم، والأدب الشعبى، والمعتقدات الشعبية، والعادات والتقاليد للشخصية الدمياطية، والتى تتسم بمميزات لها خصوصية، وتلك السمات هى ما يحدد الهوية المميزة للمجتمع الدمياطى، وهناك عدة دراسات أجنبية وعربية ومحلية اهتمت بدراسة البعدين الاجتماعى والثقافى للشخصية تناولت منها الباحثة بالعرض النقدى في رسالتها ست دراسات أجنبية ، وسبع دراسات عربية، وسبع دراسات محلية، وستشير الباحثة إلى أهم دراستين على كل مستوى"عالمى، وعربى ، ومحلى" من تلك الدراسات والتى لها علاقة بالبعد الثقافى

للشخصية موضوع البحث الراهن، فهناك دراسة AR.Momin بعنوان"التعددية الثقافية ،والهوية الوطنية، والتنمية/دراسة حالة للهند" ٢٠١٠، و دراسة بولا نيلسون عن"سمات الشخصية اليابانية ودورها في التغلب على الكوارث"٢٠١١على المستوى العالمى، وبالنسبة للدراسات العربية فهناك دراسة"القيم والتحولات الاجتماعية والثقافية بالمغرب"لمحمد الصغير جنجار عام ٢٠٠٤، ودراسة سلوى الخطيب بعنوان"الثقافة والشخصية : دراسة تطبيقية على الشخصية القومية السعودية"٢٠١١، أما الدراسات المحلية فهناك دراسة لمحمود عبد الرؤوف كامل بعنوان "دور الإعلام في البناء الثقافى والاجتماعى للمصريين، دراسة ميدانية لدور وسائل الإعلام في بناء الشخصية المصرية"٢٠٠٧ ، و دراسة بعنوان"التغير في ملامح الشخصية النوبية-دراسة على عينة من النوبيين المقيمين في القاهرة الكبرى" للباحثة الشيماء على عبد العزيز عام ٢٠١٠، وقد استفادت الدراسة الراهنة من التنوع في المنهج والنظرية وأوجه الاتفاق والاختلاف في الموضوع لكل من الدراسات السابقة .

وفى هذا البحث سوف يتم عرض بعض الملامح الثقافية للشخصية الدمياطية، وذلك باستعراض الخصال العامة والقيم، وأهمها البخل ،والمنافسة، والمسالمة، ثم بعض القيم التى تنوعت ما بين قيم اقتصادية"كقيمة العمل، وقيمة الوقت، وقيمة العمل الجماعى، وقيمة الالتزام بأداء الحقوق، وترشيد الاستهلاك"، وقيم اجتماعية تتمثل في"حرمة البيت، والانتماء، والنظافة"، والتى سيتم عرض نتائجها على النحو التالى:-

أولاً)خصال (سمات) عامة:-

الشخصية الدمياطية تمتلك سمات عامة للشخصية منها البخل، والمنافسة، و المسالمة ،وهذه السمات شائعة بين أفراد المجتمع المحلى ، وهى تظهر صورتهم عن أنفسهم ، كما تعكس صورة الآخر لديهم، وفيما يلى أهم النتائج التى خرجت بها الباحثة من دراستها لكل سمة من تلك السمات على حدة.

١)البخل:-

ارتبطت صفة البخل داخل المجتمع المصرى بالدمايطة، ولتحرى الدقة حول تلك السمة التى التصقت بالشخصية الدمياطية قامت الباحثة بدراسة تلك السمة من منظورين المنظور الأول يدور حول صورة الدمياطى عند الآخر وتبريره لهذه الصورة بما يراه هو حول ذاته، والمنظور الثانى يدور حول صورة الآخر عند الدمياطى ، وخرجت بنتائج أهمها:-

أ)صورة الدمياطى عند الآخر :-

هناك من يعتقد أن البخل والدمايطة وجهان لنفس العملة، وهناك مقولة رائجة بين الدمايطة أنفسهم هى أن الدمياطى بخيل «لكنمش على نفسه ولا على أهل بيته»، فالدمياطى يدرك صورته عند الآخر ولكنه لديه صورة عن ذاته يبرر بها ما يشاع عنه ويدفع بها عن نفسه

صفة البخل كما يراها الآخرون، فهو رجل عملى يرشد فى الاستهلاك، ويعرف قيمة ما يملكه ويحافظ عليه لأنه نتيجة شقائه وكده وتعبه.

ويتعجب الدمايطة من إشاعة صفة البخل عنهم فيعددون الأسباب التى بسببها يعتبرهم الآخرون بخلاء، وذلك حسب قولهم ربما لأن الدمياطى يفخر بأنه لا يجد غضاضة فى تغييرنعل الحذاء عدة مرات كلما تمزق، مادام جلد الحذاء لايزال سليما، وكل ذلكتوفيرا لثمن شراء حذاء جديد، كما أنه -بالمثل- لا يجد حرجا فى تغيير ياقةالقميص عندما تبلى، بدلا من شراء قميص جديد حتى لو كان صاحب الياقةمليونيرا، والدمياطى «حريص» حتى فى إقامة علاقة حميمية مع زوجته، فهو يفضل ألايزيد الأمر عن مرة واحدة فى الأسبوع، وهى ليلة الإجازة، حتى لا يتأثرإنتاجه فى اليوم التالى، وإذا أقدم على عمل خيرى، كما حدث فى تجهيز مستشفىدمياط التخصصى بالجهود الذاتية، ضرب عصفورين بحجر واحد، فمن تبرع بعدد منالكراسى للمستشفى أو عدد من الآسرة، يكتب اسم معرض الموبيليا أو المصنععليها، ليكون الأمر تقربا إلى الله وتقربا إلى الزبون، ويفهم البعض من طريقة الدمياطي أنه بخيل ولكنه ليس كذلك بل هو حريص علي وقته وماله، وحياته، وهذاهو أسلوبه للتقدم في الحياة، فهو يعتبر ذلك وعياً وليس بخلاً ، ويجد نفسه رب أسرة يستطيع أن يجعل نفسه وأسرته يعيشون فى مستوى اجتماعى ومادى ممتاز، فهو يحرص على أن يلبس هو وأسرته جيداً ويأكل هو وعائلته أفضل الأطعمة، ويجعلهم يتنزهون ويستمتعون بإجازاتهم وهم يشعرون بالرضا الذاتى عن أنفسهم وبالتواؤم مع سلوكياتهم حتى مع اتهامات الآخرين لهم بالبخل وتهكمهم عليهم.

وفى مقابل صورة الدمياطى عند الآخر هناك صورة الآخرعند الدمياطى وهى صوره تعكس وتبرر إيمان الدمياطى بصورته عن ذاته وإيمانه بصحة هذا التصور وهى كالآتى:-

ب)صورة الآخر عند الدمياطى:-

الدمياطى لا يدافع عن تصوره عن ذاته فيما يخص البخل فقط بأن يعتبر نفسه شخصاً عملياً بدلاً من شخص بخيل، بل يستخدم تصوره عن الآخر كنوع من الدفاع عن ذاته ، ودحض ما يشاع عنه وتوضيح الصورة بشكل معكوس ليحول العيب إلى ميزة تميز شخصيته، فهو يدرك ما يشاع عنه من قبل الآخرين بالنسبة للبخل، لكنه لا يلتفت لتلك الصورة فهو عندما يقارن حاله بحال أى شاب في سن العشرين في أي محافظة أخرى يجد نفسه قد بنى نفسه بنفسه دون الاعتماد على أحد سواء أهله أو انتظار أن تدعمه الدولة بوظيفة أو سكن، كما يجد أن العمل الحرفى قد أعطاه الكثير من الخبرات التى تجعله يتحمل المسئولية مقارنة بأبناء المحافظات الأخرى الذين يتهمهم بأنهم لا يستطيعون تحمل المسئولية، وأن كل محافظة لها من الصفات السيئة ما يجعل الدمايطة لا يستطيعون فهم ما يتهكم عليهم به الآخرون.

ومما سبق يمكن استخلاص عدة نتائج أهمها:-

١)الدمياطى لا يهتم بما يراه الآخرون حول بخله.

٢)الدمياطى لا يعتبر شائعة البخل حقيقية فهو يعتبرها حرصاً ووعياً وترشيد إنفاق لما يكسبه بعرقه وكده.

٣)الدمياطى لا يرى بخله بمنظوره عيباً بل يراه ميزة تميزه عن أبناء باقى المحافظات، فهو يتحمل المسئولية، ويخطط لمستقبله، ويعتمد على ذاته، ويساعد أبويه، ويهتم برفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى لأسرته، ويستقل مادياً ويتزوج مبكراً وهى ميزات لا يتمتع بها كثير من شباب بعض المحافظات المصرية الأخرى .

٢) المنافسة:-

ارتبط التميز فى حرف بعينها بحب الدمياطى للمنافسة ، فقد اختلط الدمياطى بشعوب أخرى وتعلم منهم الكثير من الحرف والعادات والثقافات، لذا فقد وضع ذلك الاحتكاك الاجتماعى أساساً لخصلة التنافس والرغبة فى الإبداع؛ حيث يعرف الدمياطى أن مجال عمله مجال تنافسى يستحوذ فيه من يتقن أكثر، ومن يجيد تلك الصنعة أكثر، ومن يستحدث ويطور أكثر من غيره على انتباه الزبائن وأسواق البيع، بل ولن يحق له فرض أسعاره على المشترين إلا إذا كان ما عنده لا يستطيع الآخرين تقليده، ولذا اشتهرت دمياط بصناعات معينة أصبحت مرتبطة باسم دمياط.

وللمنافسة قواعد فى سوق العمل والإنتاج الدمياطى؛ حيث يحرم على الجميع الغش فى الخامات، و يراعى الحرص على جودة المنتج والسعر حفاظاً على السمعة، على أن تكون المنافسة فى الصناعة والشكل وطريقة العرض، وباب المنافسة يكون مفتوحاً على مصراعيه حتى بين الأب وإبنه، أو بين الأسطى ومعلمه، فمن الجائز أن يستقل الولد عن أبيه ويفتتح ورشة أو محلا بعيداً عن والده فى أى مجال من مجالات الإنتاج داخل السوق الدمياطى وينافس أباه أو معلمه، وهذا لا يشكل أى حساسية داخل السوق الدمياطى على العكس فهذا الوضع حسب أقوال الإخباريين يحفز على تجديد السوق، والحرص على التنافس حول جودة المنتج مما يعود على المستهلك بالنفع، ويجذب مزيداً من الزبائن للتردد على الأسواق.

كما أن بعدى الجيل والتعليم أثرا فى سمة المنافسة حيث أصبحت الأجيال الشابة أكثر إطلاعاً واستخداماً للتكنولوجيا كالانترنت والكتالوجات التى تصدر فى كل مجال للتعرف على أحدث ما وصل إليه الآخرون، وقد توصلت الباحثة من خلال ملاحظاتها ومشاهدتها فى الأسواق إلى مدى التنافس فى عرض السلع والتصميمات فى الأثاث، وهناك بعض محلات الحلوى تتيح لعملائها تذوق الحلوى قبل شرائها، وفى المعتاد يكون العملاء الذين يتعاملون مع السلع الدمياطية بكافة أنواعها خير دعاية فيما بعد فى باقى المحافظات أو حتى خارج مصر، وتؤكد مبيعات المعارض الدولية داخل وخارج مصر لمنتجات دمياطية على قوة المنتج الدمياطى ورواجه، كما أن قوة تماسك العائلات فى دمياط، ومحاولتها الاحتفاظ بصناعاتها المتوارثة

وأسرارها الصناعية التى تنتقل من السلف إلى الخلف فى دقة متناهية أكبر الأثر فى تنمية وتواصل الإبداع وتطويره.

٣)الدمياطى شخصية مسالمة:-

شخصية الدمياطى شخصية مسالمة فهو لا يميل إلى العنف، وقد بدا ذلك واضحاً في طريقة الاعتراض والاحتجاج علي مصنع "اجريوم" الكنديلإنتاج اليوريا والغاز فقد كان اعتراضاً حضارياً وهادئاً، فالدمايطة متحضرون في كثير منتصرفاتهم وأفعالهم، فعلى الرغم من أنهم اعترضوا علي مصنع رأوا أنه بسبيله إلي تلويثالبيئة البحرية وتهديد الصيادين وإفساد مصيف رأس البر، كما أنه يؤثر على صحة أولادهم، وعلى أرزاقهم، فقد كان اعتراضهم خالياً من السباب والشتائم والتطاول.

كما أن الدمياطى يلجأ للقنوات الشرعية فى حالة حدوث خلل وعلى سبيل المثال شكوى مجموعة من الشباب وجدوا مجموعة من المخالفات فى وحدات سكنية استلموها من المحافظة ،فقاموا بإرسال مندوبين عنهم للمحافظ فى يوم لقاء الجماهير، و ذكروا المخالفات ورفضهم لدفع الأقساط إلا بعد إصلاح المخالفات فى المبانى والتشطيب، ويعزو الدمايطة أى تغير طرأ على أخلاقهم إلى وجود سلوكيات مغايرة وافدة مع المهاجرين من أهالى بورسعيد في وقت النكسة وتوزيعهم على المدن المجاورة،ويرون أن لهؤلاء أخلاقيات مختلفة وغريبة عما اعتاوده من وجهة نظرهم يحاولون تجنبها والتخلص منها.

ثانياً)القيم :-

القيم التى رصدتها الباحثة من خلال دراسة الواقع الميدانى للمجتمع الدمياطى كان أبرزها قيم ترتكز حول القيم الاقتصادية، والقيم الاجتماعية، وهى تشتمل على قيم ثقافية، وقيم ومحددات العلاقة مع الآخر سواء فى الحياة اليومية أو داخل إطار المصالح المتبادلة، وتترتب أهمية هذه القيم حسب أولوياتها فى نظام الحياة داخل المجتمع الدمياطى ، كما تختلف حسب النوع ما بين رجل وامرأة كما سيتضح من الدراسة الميدانية، وفيما يلى استعراض لأهم تلك القيم وهى كالآتى:-

١)قيم اقتصادية:-

المجتمع الدمياطى مجتمع ترتبط أساسيات القيم لديه بالمنظومة الاقتصادية لذا فالدمياطى يعد القيم الاقتصادية التى تتعلق بقيمة العمل والإنتاج والحفاظ على الوقت، والعمل الجماعى، وقيمة الالتزام بالحقوق وأدائها، وترشيد الاستهلاك من أهم القيم التى تحافظ على شخصية المجتمع وهويته.

أ)قيمة العمل :

ترتبط لغة الحياة اليومية لدى الدمايطة بتقديسهم لقيمة العمل (فالمصلحة هى أكثر كلمة يستخدمها الدمياطى فى حياته اليومية وهى مرادف لكلمة العمل)،وقد استنتجت الباحثة من ملاحظاتها الميدانية و من أقوال المبحوثين أن قيمة العمل حتى لو كان عملاً منزلياً يقدره الجميع، وعدوى النشاط تسرى برؤية الشخص لغيره من أفراد المجتمع يتحركون، كما يشعر البعض بأنه مقصر أو متكاسل إذا شاهد الآخرين يتحركون بينما يقف هو متفرجاً، فقد تم توطيد مفهوم وقيمة العمل عن طريق التنشئة الاجتماعية، وترديد الأمثال والمقولات بين أفراد المجتمع نساء ورجال للتأكيد على أهمية وقيمة العمل ، حتى أن النساء يزرعن تلك القيمة فى أبنائهن منذ الصغر، وقد أوضحت أقوال الحالات الصورة التى ترسخت فى أذهان الأجيال المتعاقبة، وهى أن قيمة العمل أساس بناء المستقبل، وأن الاعتماد على النفس فضيلة ترتبط بالرجولة والنضج، كما أن تعلم حرفة أو صنعة معناه طقس اجتياز الطفل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة، وأنه أصبح مسئولاً ويُعتمد عليه، كما أنها تمثل الخطوة الأولى فى بناء مستقبله.

ب)قيمة الوقت:-

يتميز الدمايطة باهتمامهم بقيمة الوقت وحسن تنظيمه، وقد يستمر العامل الدمياطى فى العمل مدة تزيد عن العشر ساعات يومياً، والوقت في دمياط يؤثر بشكل كامل في المعاملات ، فالورش لابد أن تفتح في موعد محدد، والانتهاء من العمل لتسليمه للزبائن لابد أن يرتبط بوقت محدد، ويوم الخميس هو وقت هام في الأسبوع حيث يتسلم العمال أجورهم، ويتم سداد الحقوق وأثمان البضائع والمواد الخام، ويوم الجمعة هو يوم الراحة الأسبوعية للرجال في دمياط، ويوم الترفيه والخروج للعائلة، ويعرف الدمياطى أن قيمة عمله ترتبط بمدى احترامه لقيمة الوقت فهو يدرك تماماً أن الالتزام بالوقت هو ما يجعله متميزاً، فسمعته مرتبطة بجودة عمله ومدى إتقانه لصنعته ومدى تقيده والتزامه بتسليم ما أنتجه في موعده المحدد سواء لأصحاب المعارض والمحلات أو لمستهلكين عاديين، كما أنه يعرف أنه لو لم يستغل وقته في الإنتاج لن يجد من يعوله ويعول أسرته، حتى أن تدريب الصبية منذ الصغر على اكتساب حرفة يدوية وتعليمهم صنعة يأتى من منبع أن الدمايطة يحبون غرس قيمة الوقت في أولادهم ويرون أن الطفل إذا بدأ التعلم مبكراً ينضج وهو متقن لعمله، ويكتسب من خلال الوقت والعمل بقية القيم الأخرى بالتدريج.

وحتى النساء يقدسن قيمة الوقت فلا تجد امرأة تضيع وقتها في الثرثرة مع الجيران أو في الحديث الهاتفى، بل أنها تراعى مصالح أسرتها أولاً وتقوم بأعمالها المنزلية، وتستغل وقت فراغها في هوايات ترتد على أسرتها بالنفع، كأن تقوم بالخبز أو الخياطة أو أشغال الإبرة، وهى تعلم أبنائها تقديس الوقت واحترامه، وترتب جدول أعمالها حسب مواعيد الزوج وعمله، ففى معظم الأوقات تقوم بإطعام أطفالها الصغار وتنتظر زوجها لتتناول معه طعام الغداء، وهى تنتهى من أعمالها المنزلية قبل موعد دخول زوجها للمنزل لتهيئ له الراحة حسب أقوال الحالات.

ج) قيمة العمل الجماعى:

على الرغم من تزايد النزعة الفردية فى المجتمع المصرى، إلا أن المجتمع الدمياطى مايزال محافظاً على ثقافة العمل الجماعى التى هى أحد القيم الاقتصادية الهامة، وتؤصل ثقافة العمل الجماعى وتستدمج فى شخصية أفراد المجتمع من خلال التنشئة الاجتماعية كماهى الحال فى بقية القيم الأخرى التى تسعى الأسرة الدمياطية لغرسها فى أبنائها، والدمياطى يعرف بفطرته أنه لا يستطيع إنجاز العمل بدون فريق يعاونه على ذلك، وأن ما يجعل العمل الجماعى ناجحاً هو احترام الأدوار وتقسيم العمل وتسلسله حسب الخبرة والكفاءة، فداخل الورش هناك المعلم والأسطوات والصبيان وكل منهم له عمل مكلف به إن لم يقم به تعطلت أعمال الآخرين، وكل شخص فى ذلك الفريق مهما كان عمله بسيطاً فهو مهم ولا غنى عنه، والفريق لا يشمل العاملين فى الورشة فقط ، فالنجار يحتاج الأويمجى والقشرجى والمدهباتى وغيرهم من العاملين فى المجال، فالعمل الجماعى يشمل فريقين ، الفريق الأكبر يبدأ من مستورد الأخشاب وبائعى أدوات النجارة وحتى صبيان الورش الذين يقومون بالتنظيف والترتيب ، والفريق الثانى يشمل فريق التسويق بدءاً من البيع داخل الورش والمعارض وحتى التصدير للخارج، وهذا لا ينطبق على مجال الأثاث فقط ، بل على كل المجالات الأخرى خاصة فى التنظيمات غير الرسمية فالعاملون فى مجال صناعة الحلويات والألبان والأحذية جميعهم يعرفون قيمة العمل الجماعى،وما يؤكد تطبيق قيمة العمل الجماعى داخل المجتمع الدمياطى ليس فقط وجود فرق، ولكن توزيع المهام والأدوار ، ووجود قائد لكل فريق عمل ووجود هدف يسعى الجميع لتحقيقه ، وتتكامل خبراتهم مع احترام كل منهم لدور وخبرة وكفاءة الآخر، مما يؤدى لإنجاز المهام وتحقيق الأهداف بأفضل مستوى من الأداء.

وتتلخص أهم النتائج الخاصة بقيمة العمل الجماعى فيما يلى:-

١)الشخصية الدمياطية تؤمن بقيمة العمل الجماعى كأحد أسباب النجاح والتميز وهو ما يدفعهم لغرس تلك القيمة داخل أبنائهم من خلال التنشئة الاجتماعية.

٢)قيمة العمل الجماعى تنبع من داخل المنظومة الاقتصادية حيث الاحتياج والتكامل وتبادل الخبرات والتعاون والرغبة فى تنفيذ وإنجاز الأهداف.

٣)العمل الجماعى ينفى سمة الأنانية ويؤكد سمة التنافس وقيمة الانتماء والولاء للمجتمع المحلى.

٤)تقسيم العمل بين أفراد الفرق المختلفة، واحترام كل فرد لدوره واحترامه لأدوار الآخرين ،ولتسلسل المهام دلالة هامة على أن العمل الجماعى قيمة مفعلة داخل المجتمع الدمياطى

د)قيمة الالتزام بأداء الحق :-

الدمياطى لا يقبل أن يستغل أحد، لكنه فى المقابللا يطيق من يحاولون استغلاله، وقد يصبر التجار على المديونين لهم من التجار الأصغر إلا أنهم لا يتركون مالهم ولا حقهم فى الدين ويظلون يصرون عليه، والثقة هى ما يعتمد عليه أهالى دمياط حيث أن التجار معظمهم ذا تاريخ طويل فى التعامل مع بعضهم البعض وعادة فى المبالغ الصغيرة والمتوسطة يكون السداد بموجب الكلمة والشهود من كبار التجار الذين يضمنون سداد الدين عن المدين، لكن فى المبالغ الكبيرة يكون السداد بالشيكات أووصل الأمانة.

وقد رصدت الباحثة من خلال دراستها الميدانية أن الضبط الاجتماعى غير الرسمى والقيم الثقافية الموروثة هى ما تشكل رادعاً ضد أى تجاوز فى مسألة الحقوق وخاصة المادية وكذلك المشكلات غير المادية، فالاحتكام للكبار سواء من العائلة أو من أهل الثقة أو من كبار الصنعة أو التجارة هو أسلوب شائع بين الدمايطة للفصل فى المشكلات واستعادة الحقوق المسلوبة أو المعتدى عليها، ويجد الطرف المظلوم أن هذا صمام الأمان بالنسبة له لاسترجاع حقه دون اللجوء للقضاء وتمضية سنوات فى المحاكم لنيل حقوقهم، ومع ذلك يتم اللجوء للقضاء فى حالات النزاع القصوى وبعد اللجوء للحلول السلمية، ومن أمثلة المحافظة على الحقوق أنه من الصعب أن يقبل راكب فى سيارة سرفيس زيادة الأجرة دون أن يرفض ويحتج هو و باقى الركاب حتى لا يتمكن السائق من استغلال الركاب ولا يزيد الأجرة إلا بمرسوم حكومى، كما يعترضون على استغلال بعض التجار وزيادة الأسعار واحتكارهم لبعض السلع وذلك عادة يكون بالجدل مع الباعة أو المقاطعة أو إبلاغ الجهات المختصة.

هـ)ترشيد الاستهلاك :-

للدمياطى وجهة نظر مفادها أن دمياط ليست مدينة البخل بل هى مدينة بلا فاقد، وأن ترشيد الاستهلاك هو جزء من الحفاظ على دوام النعمة ، وفيما يلى توضيح لبعض النقاط عن ترشيد الاستهلاك في المجتمع الدمياطى من خلال الدراسة الميدانية.

١)إعادة تدوير الأشياء المستهلكة:-

على عكس المجتمع المصرى الذى أصبح مجتمعاً مستهلكاً، يعانى من نهمه لاستهلاك أشياء لا يحتاجها ويتصرف في الفاقد بطريقة توحى بأنه واحد من تلك المجتمعات الغنية، بينما يعانى معظم أفراد المجتمع من الفقر، يأتى المجتمع الدمياطى ليقدم نموذجاً ليس فقط في ترشيد الاستهلاك واقتناء ما يحتاجه الشخص، لكن أيضاً بإعادة تدوير الأشياء المستهلكة والاستفادة منها ويقدم على ذلك أمثلة عديدة، فمثلاً يبيع الدمايطة لأهالى «بطرة» -قرية صغيرة تتبع محافظة الدقهلية المجاورةلدمياط - لمبات النيون المحترقة، فالقرية بها محطات لتقوية الإرسالالتليفزيونى ذات ضغط عال، تضئ تلك اللمبات المحترقة مرة أخرى بذبذبات هذاالضغط العالى، ويقوم الطلبة ببيع الكتب المدرسية للمحامص ولمشترى (الروبابيكيا)، كما تقوم سيدة المنزل باستبدال الأدوات المنزلية المكسورة كالأطباق البلاستيك أو الأطباق الصينى المكسورة والأدوات المنزلية بغيرها من بائع (الروبابيكيا)، وهو رجل يملك إما عربة كارو أو تريسيكل ويقوم بالتجول في الشوارع والحارات لشراء الكتب أو الأدوات المنزلية أو مخلفات منزلية لا

تحتاجها ربة المنزل ويقوم بشرائها إما بالمال أو باستبدالها ببعض الأدوات المنزلية رخيصة الثمن .

٢)الفاقد في المحلات:- تبيع محلات بيع وتنظيف الدواجن مخلفاتها لأصحاب مصانع العلف ومزارع الأسماك،أما أصحاب محلات الفاكهة فيرسلون الفاكهة غير الطازجة لمحلات العصير لاستغلالها، ويرسل أصحاب محلات الخضروات ما يتبقى من البيع إلى معامل التخليل لتحويلها لمخللات، ويقوم أصحاب محلات الأسماك بتوزيع الفائض على أكثر من جهة فهناك المطاعم المتوسطة والصغيرة، كما يتم تحميل الفائض من الأسماك لتوزيعه على المدن المجاورة كشربين ، وطلخا بعد وضع الثلج عليها ليتم حفظها في ثلاجات وبيعها في اليوم التالى في محلات تلك المدن، كما يتم تمليح الأسماك التى لا تصلح للمطاعم أو التصدير الداخلى ليتم تحويلها ل"فسيخ"، أما محلات الألبان فتقوم بتحويل الفائض ل"مش"وهو مشهور ومطلوب حيث يتم إضافة اللبن الرايب إلى الحلبة وبقايا الجبن مع ملح وشطة، أما محلات الحلويات فلا فائض فيها حيث يتم عمل كميات حسب مستوى الإقبال والموسم ويتم حفظ الباقى في ثلاجات وتخفيض ثمنه أو إرساله لمحلات صغيرة لبيعه بثمن زهيد حتى لا تفقد المحلات الكبرى سمعتها، وأما عن بقايا المطاعم فيوزع بين مزارع الأسماك ومزارع الدواجن .

٣) الفاقد في الورش:- يقوم تجار الأخشاب والأثاث بالاستفادة من الفائض والفاقد ويرسلون الأخشاب غير الصالحة أو ما تلف منها أثناء العمل إلى ورش شارع عبد الرحمن للأثاث (السوقى)،ويتم إعادة تصنيعه كاكسسوارات أو لوحات أو أنتيكات.

٤)ترشيد الاستهلاك في المطبخ الدمياطى:-

تتفنن المرأة الدمياطية فى فن الطهى فهى مشهورة بطهيها المميز للأطعمة ومنتجات الطعام المنزلية فهى تصنع المربى فى منزلها بدلا من شراءها، وتجيد تخزين الفاكهة والخضروات لاستعمالها فى غير مواسمها بأرخص الأثمان، كما تتقن طهى جميع أنواع الأسماك والكائنات البحرية بعدة طرق ، أما بالنسبة للحلويات فهى ما تشتهر به مدينة دمياط بشكل عام والنساء الدمياطيات بشكل خاص، فالمرأة الدمياطية تعلمت العديد من الأطعمة الشرقية والغربية مما يقلل نفقات الأسرة، وأفضل وصف للمرأة الدمياطية وفن ترشيدها للاستهلاك فى مطبخها يأتى عادة من جانب الرجل فهو أكبر مناصر للمرأة الدمياطية حتى من احتكوا بالمرأة الدمياطية من خارج المحافظة يدركون قدرة المرأة الدمياطية على تدبير شؤون منزلها، وإبداعها وتميزها فى مطبخها.

٥)الفاقد في الطعام:-كما أن المرأة الدمياطية فنانة في مطبخها فلا فاقد في طعامها إلا أقل القليل، وإذا ما تبقى طعام صالح للأكل فهى تعيد إنتاجه في اليوم التالى ليصبح صنفاً جديداً، فالزوجة الدمياطية تجهز لزوجها قبل توجهه إلى عمله «كيس بلاستيك»، به كلبواقى الطعام

من أرز وخبز وخضار ليأكله كتصبيرة في ورشته حتى يعود للمنزل، فيأكل الزوج قدر ما يشاء، ويعطى بواقى هذا الكيس لأحد صبيانه، فيعود إلى العمارة، ويصعد إلى السطوحويقوم بتوزيع تلك البواقى على الطيور التى تربيها «الحاجة»، وتكون تلك البواقىالبديل المجانى للأعلاف التى ارتفعت أسعارها.

٦)الأقمشة والملابس:- لا يأتى تدبير المرأة الدمياطية في منزلها من كونها مدبرة في مطبخها فقط بل هى مبدعة في التطريز وصناعة الملابس المختلفة، فهى تصنع المفارش وتطرز الخداديات والملاءات بدلاً من شراءها، وأحياناً تصنع ملابس النوم الخاصة بأبنائها، وتقوم بعمل كسوة للأنتريه لحمايته من أن يبلى من كثرة الاستخدام والجلوس عليه فهى تجدد شكله بالكسوة وتحافظ عليه، كما تقوم الأم بتداول الملابس بين أبنائها فالكبير يعطى ملابسه للأصغر.

٢)قيم اجتماعية:-

أ)حرمة البيت:-

الدمياطى رجل عملى يرفع شعار «صحبى وصحبكع القهوة»، بمعنى أنه يستضيف الأصدقاء على المقهى أو خارج حدود المنزل، فالبيت خطأحمر، لكن الغريب أن هذا ما يحدث مع فئات اجتماعية أخرى منهم أصدقائهالمقربون وشركاء العمل، والأقارب من الدرجة الثانية، فلا يفتح البيت إلا للأقارب من الدرجة الأولى، حتى أن السيدات يحرصن على إغلاق شبابيك المنازل. والمرأة الدمياطية لا تحبذ الاختلاط إلا بالجيران القدامى الموثوق فيهم، إلا أنها لا تسمح للآخرين حتى لو من الجارات بالاطلاع على أسرار بيتها وأسرتها، أو إظهار ما فى بيتها للآخرين خشية الحسد ، ولا تجد النساء فى دمياط يقفن فى الشبابيك ويتبادلن الحديث كما يحدث فى الكثير من مدن الأقاليم، كما لا تجدهن يجتمعن للثرثرة حتى وإن حدث ذلك فهو يكون بعيداً عن حدود المنزل وكان هناك مناسبة كعزاء أو تهنئة لفرح أو مولود، فالمرأة الدمياطية إما أنها فى عملها أو أنها تهتم بشؤون بيتها وأسرتها، وترعى شؤون زوجها .

وعندما كانت المنازل أكثر اتساعاً وبها مساحات تسمح لعمل مضيفة أو غرفة صالون خارجية أو طابق فى المنزل كان من الممكن للرجل أن يستضيف أقاربه ومعارفه فيها بحيث لا يكشف زائروه حريم منزله وهذا ما أكده الإخباريون من كبار السن، وترى الباحثة أن هذه القيمة بالذات وجدت نظراً للظروف التاريخية والاقتصادية التى تعرضت لها المدينة، فقد تعرضت المدينة عبر تاريخها للكثير من الغزو، كما أن دمياط بصفتها ميناء تجارى يفد إليها الكثير من الأغراب، وبذا فقد أصبح الرجل أكثر تخوفاً وحرصاً على أهل بيته وأصبحت خصوصية البيت وحرمته قيمة ذات شأن كبير داخل المجتمع الدمياطى.

ب)الانتماء:-

الشخصية الدمياطية شخصية شديدة الانتماء، والدمياطى ينتمى لأسرته ولعمله وللمدينة التى يقطن بها ولكنه غير مهتم بالشأن العام أو القضايا العامة عادة، فهو غير مهتم بالتشريعات أو الانتخابات أو القضايا المصيرية التى تؤثر على الدولة أو على الأمة العربية، فعندما تسأل دمياطى هل خرجت فى المظاهرة التى تشجب وتندد بالعدوان على غزة يرد عليك فيقول(هى المظاهرات دى هتأكلنا ولا تشربنا)، ونفس الشىء ينطبق على الانتخابات حيث تجد عزوف الأغلبية من الدمايطة عن المشاركة فى الانتخابات ؛حيث لا يرغب دمياطى فى تعطيل مصالحه رغبة فى انتخاب عضو مجلس شعب، فهو لا يرى فى أعضاء مجلس الشعب غير أناس مستفيدون من وضعهم فى البرلمان ومفيدون لأقاربهم ومعارفهم وقليل منهم يخدم أبناء الدائرة أما البقية من أهالى الدائرة فهم غير مستفيدين، لكن رغم ذلك فالانتماء الأساسى للدمياطى يظل لأسرته وعمله ومدينته التى نشأ فيها، وترجع أسباب انتماء الدمياطى لمجتمعه إلى حالة الارتباط بالعادات والأماكن والأشخاص، إضافة إلى التشابه فى السمات والقيم المكتسبة من المجتمع.

ولايرتبط الدمياطى بالمكان فقط، بل يمثل له موقعه داخل المحافظة أهم ما فيها، حتى أنه من المعتاد أن يردد الدمايطة عبارة مثل(أصل الدمايطة اللى أصلهم دمياطى ما يعملوش كده لكن بتوع فارسكور طبعهم كده)، وكأن فارسكور محافظة أخرى خارج دمياط، فهم يعتزون بثقافتهم الفرعية وينتمون إليها ،وتبرز أهمية الانتماء على المستوى الاجتماعي؛ فهو العمود الفقري للجماعة وبدونه تفقد الجماعة تماسكها الذى يتحقق بانجذاب الأعضاء لها والذي يتوقف على مدى تحقيق الجماعة لحاجات أفرادها فطالما أن الجماعة تحقق حاجات الفرد فيمكنها أن تؤثر على أفكاره وسلوكه عن طريق تلك الفوائد التي يحصل عليها من وراء انتمائه لها.

ج) النظافة:-

لا أحد يستطيع إنكار أن مدينة دمياط مدينة نظيفة رغم كل الحرف والصناعات الموجودة بها، إلا أن الدمياطى بطبيعته يعتبر النظافة مدخلا للرزق، ولأن دمياط محافظة منتجة، ولأنها تقدس العمل وبها أشهر مصانع الحلوياتوالألبان ومنتجاتها وكذلك الموبيليا فقد أدركت مبكراً ان نظافة البيئة منالتلوث هي رأسمالها فلا تستطيع ان تنتج الأغذية والألبان التي تصدرها إليدول الاتحاد الأوروبي لو أن هواءها تلوث وماتت الأسماك في بحرها ونيلها،ففرنسا وألمانيا وإيطاليا واليونان التي تتهافت علي الجبنة الدمياطي" الخام" وتستوردها ثم تقوم بتصنيعها بخبرة تكنولوجية متقدمة، ربما يتوجهونلبلد آخر وأنواع جبنة أخري إذا ما شاع في حوض البحر المتوسط أن هواء وبحردمياط تلوث بدخان وغازات مصنع الأسمدة.

ولا تقتصر النظافة في دمياط على الشوارع وأمام المحلات وفى الحارات والأسواق، لكن البيت الدمياطى يتميز بنظافته الشديدة والمرأة الدمياطية هى امرأة نظيفة في بيتها وتحافظ على نظافة ملابسها وملابس زوجها وأولادها، فأنت ترى الصنايعية في الصباح وهم متجهون إلى ورشهم وهم يرتدون ثياب نظيفة وأنيقة ويحملون كيس به ملابس للعمل وهى أيضاً نظيفة

لكنها تكون قديمة وتتحمل ظروف العمل، وكذلك تفعل الأم مع أبنائها، فهى تعتبر أن النظافة جزء من الإيمان وجزء من المحافظة على صحة أسرتها، وهى عنوانها.

وبعد استعراض السمات العامة والقيم للشخصية الدمياطية خرجت الباحثة ببعض النتائج كالآتى:-

١)تعكس السمات والقيم للشخصية الدمياطية الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية التى عاشها المجتمع الدمياطى فمن تحليل الظروف التاريخية نجد أن الشخصية الدمياطية توارثت سماتها وقيمها عبر التاريخ فالخوف من المعتدى هو من أوجد قيمة حرمة المنزل، وكثرة التهجير نتيجة لظروف الحرب والحملات العسكرية هو من أوجد الانتماء، وكثرة الاحتكاك بالشعوب الأخرى هو من نقل خبرات في الصناعة والتجارة وحسن إدارة المنزل.

٢)ارتبطت معظم السمات والقيم للشخصية الدمياطية بالنظام الاقتصادى فقيمة العمل والعمل الجماعى وترشيد الاستهلاك والمنافسة والمحافظة على الحقوق جميعها تثبت أن المجتمع الدمياطى شخصية منتجة ولها خصوصية في حين اشتهرت الشخصية المصرية بحبها للاستهلاك وعدم تقديس العمل وأنها شخصية فهلوية تركن إلى الدعة واللامبالاة.

٣)لا تتأثر الشخصية الدمياطية بالأحكام السلبية التى يطلقها عليها الآخرون بل تبنى تصوراً ذاتياً حول نفسها وتظهر الجانب الإيجابى منها مثلما يفعل الدمياطية مع صفة البخل، كما انهم يستفيدون من السمعة الإيجابية ويحاولون تدعيمها كتميزهم في صناعة الأثاث أو الحلويات أوالجبن أو غيره، مما يثبت أن لديهم قوة أرادة في البناء والتميز وهذا ثابت تاريخياً.

المراجع العربية والأجنبية

****

١)أحمد زايد، المصرى المعاصر، مقاربة نظرية وامبيريقية لبعض أبعاد الشخصية القومية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٥.

٢)الشيماء عبد العزيز، التغير فى ملامح الشخصية النوبية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، المؤتمر السنوى الثانى عشر(الشخصية المصرية فى عالم متغير)، القاهرة، ٢٠١٠.

٣)أندرو إدجار وبيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية، ترجمة هناء الجوهرى، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩.

٤)إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، الكويت،١٩٩٩.

٥)جورج ريتزر، موسوعة النظرية الاجتماعية، ترجمة مصطفى خلف عبد الجواد، كلية الآداب ، جامعة المنيا، ٢٠٠٦.

٦)جوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة ، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧.

٧)سلوى عبد الحميد أحمد الخطيب، الثقافة والشخصية :دراسة تطبيقية على الشخصية القومية السعودية، مكتبة الشقرى ،٢٠١١.

٨)شاكر حسين خشالى، نظريات معاصرة فى علم الاجتماع، الاكاديمية العربية المفتوحة فى الدنمارك، ٢٠١٠.

٩)محمد الجوهرى وعبد الله الخريجى، طرق البحث الاجتماعى،الطبعة الخامسة، القاهرة، ٢٠٠٨.

١٠)محمد الصغير جنجار، القيم والتحولات الاجتماعية والثقافية بالمغرب، سلسلة من الورش الفكرية المدرجة ضمن برنامج « المغرب : سيناريوهات ٢٠٢٥ »، مؤسسة فريدريش إيبرت، الدار البيضاء، ٢٠٠٤.

١١)محمود عبد الرؤوف كامل، دور الإعلام فى البناء الثقافى والاجتماعى للمصريين/دراسة ميدانية لدور وسائل الإعلام فى بناء الشخصية المصرية، المؤتمر العلمي الثالث عشر (كلية الإعلام ، جامعة القاهرة)٢٠٠٧.

12)AR Momin,Cultural Pluralism, National Identity and Development,The Indian CaseIndira Gandhi National Centre for the Arts, New Delhi,2010.

13)Paula.Nielson, The personality characteristics of the Japanese People,Well Hosting Solution At Great low Prices, Journal of Personality and Social Psychology,2011, 516 , 599-615.